القضيّةُ الرّابعة
التّشاؤمُ من المرأة

وتتعلّق هذه الشّبهة بالحديث الشريف المتّفق عليه بين البخاري ومسلم، كلاهما عن عَبْد اللهَّ بْن عُمَر- رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ، صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ فِي الْفَرَسِ وَالْمَرْأَةِ وَالدَّارِ» وهذا لفظ البخاري [1].

وأمّا لفظ مسلم عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ، ﷺ، قَالَ: « لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَإِنَّمَا الشُّؤْمُ فِى ثَلاَثَةٍ الْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ وَالدَّارِ » [2].

وقبل أن نتكلّم على الحديث، علينا أن نعرف أنّ الشّؤم هو توقّع الشرّ، عكس التفاؤل فهو توقّع الخير، وكان التشاؤم من عادة أهل الجاهلية، فكانوا يتشاءمون بالأيام والأرقام:

كالرّقم: (7): كانوا يتشاءمون بهذا الرّقم حتى إنهم إذا عدّوا، أو كالوا قالوا: ستة، سمحة، ثمانية،... ويقولون في أمثالهم: سبعة لا رِي ولا شبعة.

---

(1) ـ صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري (7/ 179).

(2) ـ صحيح مسلم- مشكول وموافق للمطبوع (7/ 34).

وكيوْم الأربعاء: يتشاءمون بهذا اليوم، ويتحاشون السّفر فيه وعقد الزواج وجميع الأمور المرجو فيها التوفيق.

ويوم: (21): وهو يوم أيضًا يعتبرونه مشئومًا، ويبالغون في الحذر منه أكثر من يوم الأربعاء، فإذا صار بعد ظهر يوم (20) في الشهر، قالوا: دخلت الوجبة أي المحظورة فلا يسافر بعضهم في هذا اليوم، ولا يعقد أمرًا ذا بال.

فإذا وافق يوم الأربعاء أنْ كان يوم (21 في الشهر) سمّوه الصّريماء: لعلها مأخوذة من الصّرم، وهو كسر الشيء بشدّة. ولهم كراهية شديدة لهذا اليوم، حتى إنّ بعضهم إذا غضب على ولده ولم يرَ منه خيرًا قال له: ضَرَّاب الصريماء.

كما كانوا يتطيرون بأصوات الطيور، كالغراب، يتطيرون بنعيقه وهو بزعمهم يخبر بصوته عن خيرٍ أو شر؛ فتسمعهم يقولون: خير يا طير إن كان خيرًا لنا ولك، وإن كان شرًّا لك عنا.

كما كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بعمل الجوارح، كرفّة العين: يتفاءلون بها، ويقولون: إنها تبشّر بعودة حبيب غائب، ويقول شاعرهم:

عيني تـرفّ مبشرتي بغايب عساه يا عيني من اللي تودين

ولعلّ بعض هذه الموروثات لا تزال موجودة، وأمثالها، ليس فقط في المجتمعات الشرقية بل يوجد مثلها في المجتمعات الغربية أيضًا.

وجاء الإسلامُ لينفي كلّ هذا ويصوّب العقيدة، ويبيّن للناس أنه

لا ينبغي للمسلم أن يتشاءم، بل عليه أن يحسنَ الظّن بربّه، فيستبدل التشاؤم بالتفاؤل، ويرسخ الاعتقاد بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنّ الله وحدَه الربّ المتصرّف في الأمور؛ فهو الفعّال لما يريد، وأنّ كلّ ما سوى الله- عزّ وجل- لا يفعل بنفسه أو بذاته؛ بل كلّ شيء من خلق الله مجرّد أسباب، ولا تفعل إلّا بمشيئة الله عزّ وجل.

ولهذا ورد حديثٌ عن نفي العدوى وإثباتها في نفس الوقت، فالنفي على ظنّ أنها فاعلة لا محالة ومؤثّرة بذاتها كأنّها إلهٌ من دون الله، والإثبات على أنها من جند الله مؤتمرة بأمره جعل الله فيها تأثيرًا مشروطًا بإذنه سبحانه وتعالى.

قَالَ رَسُولُ الله، ﷺ: «لاَ عَدْوَى، وَلاَ طِيَرَة، وَلاَ هَامَةَ، وَلاَ صَفَرَ وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ» [1].

ومِن هنا، كان على المسلم أن يتفاءل ويوقنَ بأنّ الله- عزّ وجلّ- سيحقّق له ما يعتقده من الخير، وسيدفع عنه ما يخافه من الشّر، موقنًا أنّ الله تعالى سيكون عند ظنّه بمعنى اعتقاده، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ، ﷺ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي...» [2]، وفي رواية: «فليظنّ بي ما شاء» [3].

---

(1) ـ صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري (7 / 164).

(2) ـ صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري (9 / 147).

(3) ـ مسند أحمد بسند صحيح (3/ 491).

مِن هذا المنطلق: نفي التّشاؤم بالمطلق من أي شيء كان، لكن إذا كان هناك سبب للتشاؤم فيمكنُ أن يكون في ثلاثة أشياء ملازمة للإنسان؛ المرأة والدابة والدار.

ويؤكّد ما ذهبنا إليه ما روي عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: ذَكَرُوا الشُّؤْمَ عِنْدَ النَّبِيِّ- ﷺ- فَقَالَ النَّبِيُّ، ﷺ: «إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ وَالْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ» (1).

فتأمّل لفظ إنْ كان، فهو أقرب إلى الإنكار منه إلى الإثبات.

لكنْ، هل هذه الثلاثة يمكن أن تكون سببًا للتشاؤم لجنسها، أم لصفةٍ سيئة في بعضها؟.

بالتّأكيد لا يمكن أن تكون كلّ امرأةٍ أو كلّ دارٍ أو كلّ مرْكَبٍ سببًا للتشاؤم، إنما هي تلك المرأة سيئة الأخلاق، وتلك الدّار الضيقة قليلة المرافق وفي مكان سوء، إضافة إلى الدابة الهزيلة أو وسيلة النقل المزدحمة دائمًا، أو التي يكثر تعطلها.

يؤكّد هذا ما ورد عن النبيّ- ﷺ- أنّه قال: «أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ: الْجَارُ السُّوءُ، وَالْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ الضِّيقُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ» (2).

(1) ـ صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري (7/ 10).

(2) ـ صحيح ابن حبان، بسند صحيح، انظر: الصحيحة، حديث رقم: 282.

وفي رواية «أَنَّ رَسُولَ الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ثَلاَثٌ مِنَ السَّعَادَةِ، وَثَلاَثٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ؛ فَمِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ تَرَاهَا تُعْجِبُكَ، وَتَغِيبُ فَتَأْمَنُهَا عَلَى نَفْسِهَا وَمَالِكَ، وَالدَّابَّةُ تَكُونُ وَطِيَّةً فَتُلْحِقُكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالدَّارُ تَكُونُ وَاسِعَةً كَثِيرَةَ الْمَرَافِقِ، وَمِنَ الشَّقَاوَةِ: الْمَرْأَةُ تَرَاهَا فَتَسُوءُكَ، وَتَحْمِلُ لِسَانَهَا عَلَيْكَ، وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا عَلَى نَفْسِهَا وَمَالِكَ، وَالدَّابَّةُ تَكُونُ قَطُوفًا، فَإِنْ ضَرَبْتَهَا أَتْعَبَتْكَ، وَإِنْ تَرْكَبْهَا لَمْ تُلْحِقْكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالدَّارُ تَكُونُ ضَيِّقَةً قَلِيلَةَ الْمَرَافِقِ»[1].

فتأكّد إذًا: أنّه إن كان يمكننا التشاؤم من شيء فمِن المرأة السيئة، ولا مجال لفهم الحديث على أنّه اعتبار لحصول التشاؤم مطلقًا من المرأة، ثمّ أليس الرسول الكريم- ﷺ- هو القائل: «ألا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ»[2].

وهو القائل: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»[3].

وفي الأثر: أنذ نبي الله داود قال:كنْ لليتيم كالأب الرحيم، واعلمْ أنّك كما تزرع تحصد، واعلمْ أنّ المرأة الصالحة لبعلها في

---

(1) ـ المستدرك 405 (2/ 162).

(2) ـ سنن أبي داود (2 / 50) بسند صحيح.

(3) ـ صحيح مسلم (4 / 178).

الجَمال كالملك المتوّج بالتّاج المخوص بالذهب، واعلمْ أنّ المرأة السّوء لبعلها كالحمل الثقيل على ظهر الشيخ الكبير[1].

وأخيرًا.. ألم يقلْ ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ.[2]، فالمرأة كالصلاة إيمان وطهرٍ وراحة قلب، وهي كالطيب إنعاش وسكون نفس.

(1) ـ مصنف عبد الرزاق (11/ 300).

(2) ـ السنن الكبرى للنسائي (8/ 149).